

دولة سلاطين المماليك الأتراك في الهند

واوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك الأولى في مصر

على الرغم من أن الولاة المسلمين بالسند الهندية زمن الأيوبيين والعباسيين لم يحاولوا توسيع أراضي ولايتهم ، حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، فإنهم عملوا على التوسع فيما بعد في إقليم أفغانستان الممتد على طول التخوم الهندية الشمالية الغربية ، حيث قامت في إقليم غزنة في قلب جبال سليمان دولة تركية فتيية ، وهي الدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦ م = ٣٥١ — ٥٨٢ هـ) . وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية في الهند كان في عهد ملكها ناصر الدين سبكتكين ، وهو الذي فتح مدينتي بست وقصدار سنة ٩٧٨ م ، وهزم جيوش جييال صاحب إقليم لاهور ، وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم مالبت أن أسر جييال ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد له بالجزية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوي (٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذي غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) ، مدفوعاً في ذلك بعامل الجهاد الديني ، والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود الغزنوي أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية .

ويقول وولزلي هييج في هذا الصدد : « نستطيع إلى حد ما أن نعد محمود الغزنوي سلطاناً هندياً خالصاً ، إذ فتح في خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام في ربوع الهند ، وافتتح طريقاً سلوكه كثيرون بعده . أما خلفاؤه ، ففنعوا بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (١) . بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر .

و كيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين في بلاد الهند ، و اتخاذهم لاهور مقراً لهم ، هي التي مهدت السبيل للسلطين الغوريين بعدهم ، ثم لخلفاء الغوريين بعد ذلك و خلفائهم من المماليك الأتراك . و أولئك المماليك لأتراك هم الذين أسسوا سلطنة دلهي نشروا نفوذ المسلمين في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (١) .

قامت الدولة الغورية (١١٤٨ — ١٢١٥ م = ٥٤٣ — ٦١٣ هـ) على أنقاض الدولة الغزنوية أو السبكتكينية ، و تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها ، وهو الغور أي جبال بين هراة و غزنة .

و استطاع الغوريون منذ سنة ١١٤٨ م أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا بلاد الغور و الأفغان و الهند . فالدولة الغورية هي ثاني دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية ، غير أن السلطان محمد بن سام الغوري ، وهو من عظماء ملوك الهند ، لم يقم في الهند دائماً ، بل كان يقيم في مدينة غزنة عاصمة ملكه ، و صار يحكم الهند عن طريق مملوكه قطب الدين أيبك ، بعد أن قطعه مدينة دلهي . و جلب السلطان محمد الغوري عدداً كبيراً من المماليك الأتراك ، و اعتنى بتربيتهم و إعدادهم لمهمة الغزو و الجهاد . و يؤثر عنه أنه صار كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن يحافظ على ملك دلتته ، من بعده ، أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء ، وهم مماليكه الأتراك (٢) . و تذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر . أكثر هذا السلطان من جلب المماليك الصغار السن و اعتنى بتربيتهم و كان يقول في هذا الصدد « كل الملوك عملوا شيئاً يذكر و ن به بعد أن ما بين مال و عقار ، و أناعمرت أسواراً ، و عملت حصوناً مانعة على و لأولادى و للمسلمين ، وهم المماليك » (٣) .

و استطاع السلطان محمد الغوري بفضل مجهودات مماليكه و على رأسهم

(١) راجع Lane—Poole : Mohamadan Dynasties. p. 284

(٢) أنظر Ibid : Medieval India under Moham. Rule, p 65.

(٣) راجع المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

أبيك (١) ، أن يمتلك جميع البلاد الواقعة شمال جبال فندهيا حتى مصبات نهر الكنج . وارتفع بعض هؤلاء الممالك إلى مناصب الحكم والقيادة ومنهم ، تاج الدين يلدز في غزنة ، وناصر الدين كوباشا في السند، وبختبار في البنغال، ثم قطب الدين أبيك نفسه في دلهي وهو أقوى الجميع نفوذاً. وكان أبيك رجلاً مسلماً متمسكاً بقواعد الإسلام ، ويظهر ذلك بوضوح في معاداته لنظام الطبقات في الهند، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الإسلام . ويروي الأستاذ لين بول أن لأبيك في دلهي مسجداً عظيماً ذا منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدماً ، وهي أطول منارة في العالم ، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وتعرف بمنارة قطب نسبة لاسمه ، وهي محلاة بزخارف ونقوش تمتاز بالطابع العربي والهندي (١) . غير أن وولزلي هايج يرجح بناء هذه المنارة في عهد مملوك أبيك وخليفته على عرش دلهي، وهو السلطان التتمش، الذي بناها فعلاً في سنة ١٢٣١ — ١٢٣٢ م، تكريماً لولي الله الخواجه قطب الدين بختيار كاكى وهو الذي أقام في غزنة والملتان بعضاً من الوقت ثم استقر أخيراً في دلهي حتى وفاته في ديسمبر سنة ١٢٣٥ م (٢) .

وفي ١٥ مارس سنة ١٢٠٦ م اغتيل السلطان محمد الغوري على ضفاف نهر السند ، بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت العاصمة الإسلامية دلهي في الهند .

وتوفي أبيك بعد وفاة سيده ببضع سنوات ، إذ انتهى حكمه على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠ م ، وذلك على أثر سقوطه عن ظهر جواده أثناء

(١) نقل أبيك في حدائته من تركستان إلى نيسابور حيث بيع إلى والي تلك المدينة . وبعد وفاة سيده بيع ثانية ، واستقر أخيراً في يد محمد الغوري . واستطاع أبيك أن يصل إلى أعلا المناصب، وأن يكسب ثقة سيده بفضل كرمه وسخائه حتى إنه لقب باسم لأقباس أى المانح بالآلاف . وأبيك لفظ تركي معناه أمير قرم . راجع Wolseley Haig : Op Vol. III., p. 41.

(٢) أنظر Lane-Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 67—69.

لعبه الكرة أو البولو الفارسية. وسادت القوضى بعد موت أيبك مدة من تولى الملك فيها ابن غير كنفؤ يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وهو شمس الدين التتمش ، واستأثر بعرش دلهي لنفسه (١). ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك بالهند ، وفي عصر ذلك السلطان ظهور الخطر المغولي تحت زعامة جنكيزخان الذي هدد العالم الآسيوي بأجمعه . وكان أول نذير لاقترب هذا الخطر فرار بلدزحاكم غزنة إلى داخل الهند من ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة أمام الجيوش المغولية .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحدثت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال، أمثال يلدز و كوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات سلفه أيبك شمال جبال فنديا (٢) .

وبلغ فوز التتمش أقصاه عندما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله ، وبعث له بالعقد والخلع التقليدي في ٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م. فأصبح التتمش بذلك أول ملوك المسلمين الذين تسلموا مثل هذا التقليد في الهند ، ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التتمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي

(١) نجد هذه الظاهرة في طول تاريخ المماليك في مصر ، حيث كان السلطان المملوكي يهتم بتولية ابنه من بعده، ويحصل على موافقة أمراء المماليك بذلك، فإذا توفي السلطان أقيم ابنه في السلطنة فعلاً، حسبما سبق الاتفاق عليه، ويظل الابن سلطاناً مدة تطول أو تقصر، وهي على كل حال لا تزيد يوماً واحداً عن المدة التي يكون أمراء المماليك ، استغرقوها في مؤامراتهم عن تكون له السلطنة . فإذا تم ذلك خلعوا الابن، وتولى السلطنة المملوك الأصح للبقاء ، لأنه لم يكن من المنتظر أن يقبل المماليك أن يكون ابن أحد ملوكهم سلطان عليهم ، وهو لم ينشأ نشأتهم ، انظر المقرئزي: كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، حاشية الدكتور محمد مصطفى زيادة.

(٢) استطاع التتمش أن يأسر يلدز، ويقتله سنة ١٢١٨ م بعد أن طاف به شوارع دلهي . أما كوباشا فقتل على مقاومة السلطان جلال الدين خوارزمشاه وجنوده الخوارزمية سنة ١٢٢١ ، واستقر الخوارزمية في إقليم السند، ثم حلوا إلى فارس سنة ١٢٢٤ ، ولم يجد السلطان التتمش صعوبة بعد ذلك في طرد كوباشا من السند، بعد أن أنهك الخوارزميون قواه؛ ويقال إن كوباشا غرق في نهر السند انتحاراً أثناء فراره سنة ١٢٢٨ . انظر Camb. Hist. of India, vol. III., p. 52—55

بجوار اسمه . وكان ذلك شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهندوس ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند (١) .

وتوفي السلطان ألتتمش سنة ١٢٣٦ ، ولم تكن هناك شخصية أكثر صلاحية للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين التي جلست على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م) . وكانت هذه السلطانة على قدر كبير من الذكاء ، وحفظت القرآن الكريم وتعلمت الكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على إخوتها الذكور ، لانغماسهم في اللهو ، وناذى بها وولية لعهدده . ولما آلت السلطنة إلى وضنة الرتب لم تلبت أن دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر ، وسماها مؤرخو الهند « ملكة دوران بلقيس جهان » (٢) . وبذلت رضية الدين جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وقادت جيشها إلى الحرب على ظهر فيلها . وكان النظام المملوكي في الهند قد تدعمت أركانه على يد أيك ومملوكه التتمش ، الذي ينسب إليه تأسيس فرقة خاصة من المماليك الأتراك عرفت بالأربعين ، فاستأثر أولئك بالنفوذ والثروة بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم ، بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف . وأنف أولئك المماليك من رؤية امرأة على العرش ، ولا سيما بعد أن قربت إليها رجلاً عباسياً — وقيل أفريقياً — كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة ، حاولت السلطانة رضية

(١) انظر Wolseley Haig : Op. cit., p. 54. & Arnold : The Caliphate. p. 86—87. & Lane—Poole : Med. India under Mohammadan Ru'e., p. 73. & Ency. Isl, Art. Illtutmish.

(٢) راجع مقدمة كتاب Blochet : Hist. des Sultans Memlouks. vol. 1., p. 873 (مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

الدين قمعها بكل شجاعة ، ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م (١).

في هذا الوقت ظهر المغول في إقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤١ م ، وذبحوا سكانها ، وفرحوا كرها قراقوش إلى دلهي . أصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من جديد ، وهذا مما ساعد على ظهور بهاء الدين بلبان أحد مماليك التتمش .

وحكم بلبان هذا في بادئ الأمر وهو وزير للمدعو ناصر الدين محمود شاه ابن التتمش الذي كان ملكاً متقشفاً متديناً منصرفاً لقراءة القرآن ومجالسة العلماء . وتزوج محمود شاه من ابنة وزيره بلبان سنة ١٢٤٩ م ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى إزدياد نفوذ بلبان واستثنائه بكل نفوذ في الدولة (٢) . وبعد موت هذا الملك في ٨ فبراير سنة ١٢٦٦ م ، اعتلى بلبان عرش السلطنة وتلقب بغيث الدين (٣) .

وتروى الروايات المعاصرة أن بلبان كان ذا أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل في حدائته عن تركستان تاركاً قبيلته وأصحابه . ثم حدث أن سرق بلبان ويبيع في الهند ، فاشتراه السلطان التتمش . وتضيف الرواية أيضاً أن السلطان التتمش رفض شراء بلبان في بادئ الأمر ، لقصر قامته ودمامته ، فصاح به بلبان « يا سيد العالم ! ولماذا تشتري المماليك الآخرين؟ » فأجابه ضاحكاً « أشتريهم لنفسى » فقال بلبان « إذن فاشتريني لله » ، فأجابه التتمش إلى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت هواه به ، فصار يتدرج حتى اندمج في جماعة الأربعين مملوكاً (٤) .

(١) انظر (Camb Hist. of India, III. p. 606 & Ency-Isl. Art. Ridiya.

(٢) انظر Camb. Hist. of India., III., p. 67.

(٣) نفس المرجع. Ibid. III p. 73.

(٤) راجع Lane—Poole : Op. cit. p. 81.

اشتهر السلطان بلبان بصفات عسكرية صارمة، وعدالة لا تفرق بين شخص وآخر، وأول عمل اهتم به هو القضاء على طغيان جماعة الأربعين مملوكاً . ومن أمثلة ذلك ما فعله بالأمير بقبق حاكم إحدى المدن ، عندما علم أنه ضرب خادماً له ضرباً مبرحاً أفضى إلى موته ، إذ أمر بلبان بقتل هذا الأمير جلداً ، كما أمر بشنق صاحب أخبار تلك المدينة، لتستره على هذا الحادث . ثم هناك الأمير هايث خان الذي قتل رجلاً بتهمة السكر والعريضة ، فلما بلغ بلبان هذا الخبر ، أمر بجلد هذا الأمير خمسين جلدة وإرساله إلى أرملة القتيل في هيئة عبد رقيق ، بحيث يحل لها قتله كما قتل زوجها ، ولم يتخذ هذا الأمير من الموت سوى وساطة بعض إخوانه الذين افتدوه بمبلغ كبير من المال . ولم يتردد بلبان في شنق أحد قاداته ، لفشله في قمع ثورة من الثورات ، ولم تكن هذه العقوبة صلبة تصير هذا القائد في مهمته ، بل لأنه كان على شاكلة بقبق وهايث خان من جماعة المالك الأربعين .

وكان تعيين أصحاب الأخبار في المدن المختلفة ، موضع عناية بلبان واهتمامه الشخصي ، وذلك لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة ، إذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، ولهذا السبب حرص بلبان على أن يجعلهم مستقلين عن سيطرة الولاة المحليين ، خاضعين لسلطانه المباشر ، كما حرص على أن يتوخى الدقة والحذر عند اختيارهم أو ترقيتهم (١)

وتظهر لنا صرامة بلبان وقسوته في السياسة التي اتبعها للضرب على أيدي عصبات المجرمين وقطاع الطرق الذين انبثوا في المسالك والطرق الموصلة بين دلهي والبنغال يعيشون فساداً وتخريباً . وقسم بلبان تلك الجهات إلى مناطق ، وخصص لكل منطقة قائداً من قاداته ثم حمل عليها فأزال منها الغابات التي كانت وكراً لتلك العصبات ، وشيد فيها القلاع الحصينة المزودة بالأسلحة والذخائر والجنود الأفغانيين . وبهذه الإجراءات الحاسمة استتب الأمن في تلك الجهات وعاد الإتصال بين دلهي والبنغال .

وتتجلى صرامة بلبان أيضاً في سياسة العنف التي اتبعها في قمع الثورات التي

قامت في عهده، ونخص بالذكر منها ثورة أمير طغريل حاكم البنغال سنة ١٢٧٩م، وهي الثورة التي قضى عليها بلبان قضاء تاماً، وعلق رؤوس الثوار على جانبي طريق طويل، وصرح قائلاً بأن بلاد البنغال لا تستطيع بعد ذلك أن تشور على دلهي بأي حال من الأحوال.

وتجلبت مواهب بلبان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت إقليم السند سنة ١٢٧٩م، فاستحق بذلك لقب «القي خان» أي الأمير القوي. وترجع انتصارات بلبان على المغول إلى الاستعدادات العظيمة التي قام بها لدفع ذلك الخطر الداهم، إذ اهتم بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر، كما أعد جيشاً قوياً مستعداً لصد أي هجوم مغولي خاطف في أية لحظة حتى لا يعرض دلهي لما كان من مصير بغداد.

وفي ٩ مارس سنة ١٢٨٥م فقد بلبان ابنه الأكبر محمد خان في واقعة ضد المغول في إقليم الملتان، فحزن عليه حزناً شديداً، ومات بعده بسنتين (١). كان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء، لأن قسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية في الميدان، إذ قضى على جماعة المماليك الأربعة، ونفى كثيراً من ذوي النفوذ في الدولة، سواء من الحكام والأدباء، ومنهم الشاعر أمير خسرو. وكانت كل آماله مركزة في ابنه الأكبر الذي مات في عهده، ولهذا اضطرت شؤون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هي الأسرة الخالجية (٢)، وهي التي استولت على عرش دلهي سنة ١٢٩٠م تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه.

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان قطز، ثالث سلاطين الدولة المملوكية الأولى في مصر، فـ كلاهما ينحدر من أصل عريق، وكلاهما بيع ببيع الرقيق، فاشترى الأول السلطان الشمس، واشترى الثاني السلطان أيبك التركماني. ثم أخذ كل منهما يتدرج في مراتب الرقي حتى استأثر بالملك بعد موت أستاذه. وكلاهما كان متحمساً للجهاد ضد المغول، وقد استطاع كل منهما أن ينقذ بلاده من ذلك الخطر المغولي الداهم الذي اجتاح بقية العالم الإسلامي فانتصر عاينهم بلبان في السند فانتصر عليهم قطز في فلسطين عند عين جالوت سنة ١٢٦٠.

(٢) ننتسب هذه الأسرة الأفغانية إلى بلدة خاليج، وقيل، لأنها تركية الأصل نزلت إلى أفغانستان، وأخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم. راجع W. Haig : Camb. Hist of India, III. p. 91.

نرى كل ما تقدم أن هناك أوجه شبه عديدة بين دولة المماليك الأتراك في دلهي ودولة المماليك الأولى في القاهرة ، إذ عاصرت كل منهما الأخرى تقريباً عند أن دولة المماليك في الهند قامت سنة ١٢٠٦ م (٥٦٠٢ هـ) ، أي أربعاً وأربعين سنة قبيل قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر ، وظلت تلك الدولة المملوكية الهندية حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٦ هـ) .

وكان سلاطين هاتين الدولتين من في مصر والهند المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة ، ربوا تربية عسكرية إسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم من التدخل في تولية السلاطين وعزلهم ، ثم الاستئثار بالملك لأنفسهم . هذا وكان العنصر التركي هو الغالب على ممالك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه في الأسماء أمثال أيك وبلبان وسنقر وقراقوش وبختيار وبقبق وغيرهم . وهدد الخطر المغولي كلا من الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما ، لاجتاح مصر والهند كما اجتاح بقية العالم الإسلامي . وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها في العالم الإسلامي ، وهي جلوس ملكتين على عرشيهما ، فعلى عرش دلهي جلست الملكة رضية الدين (١٢٣٦ — ١٢٤٠) ، وجلست شجرة الدر على عرش مصر سنة ١٢٥٠ . وهناك وجه شبه آخر نلمسه في تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية (١) ، لأن اعترافاً بهم ورضائها عنهم سوف يقوى من نفوذهم الأدبي ، ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم .

مختار العبارى

(١) ظلت دولة المماليك الأتراك في الهند على ولائها للخلافة العباسية في بغداد حتى بعد أن قضى المغول عليها سنة ١٢٥٨ م ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المستعصم المقتول على النقود ، ويذكر اسمه في الخطبة من المنابر طوال حتى سنة ١٢٨٧ م وهي سنة وفاة بلبا راجع (Arnold : The Caliphate. p. 87)